الرباب: امرأةٌ تركت قلبها عند الطيف

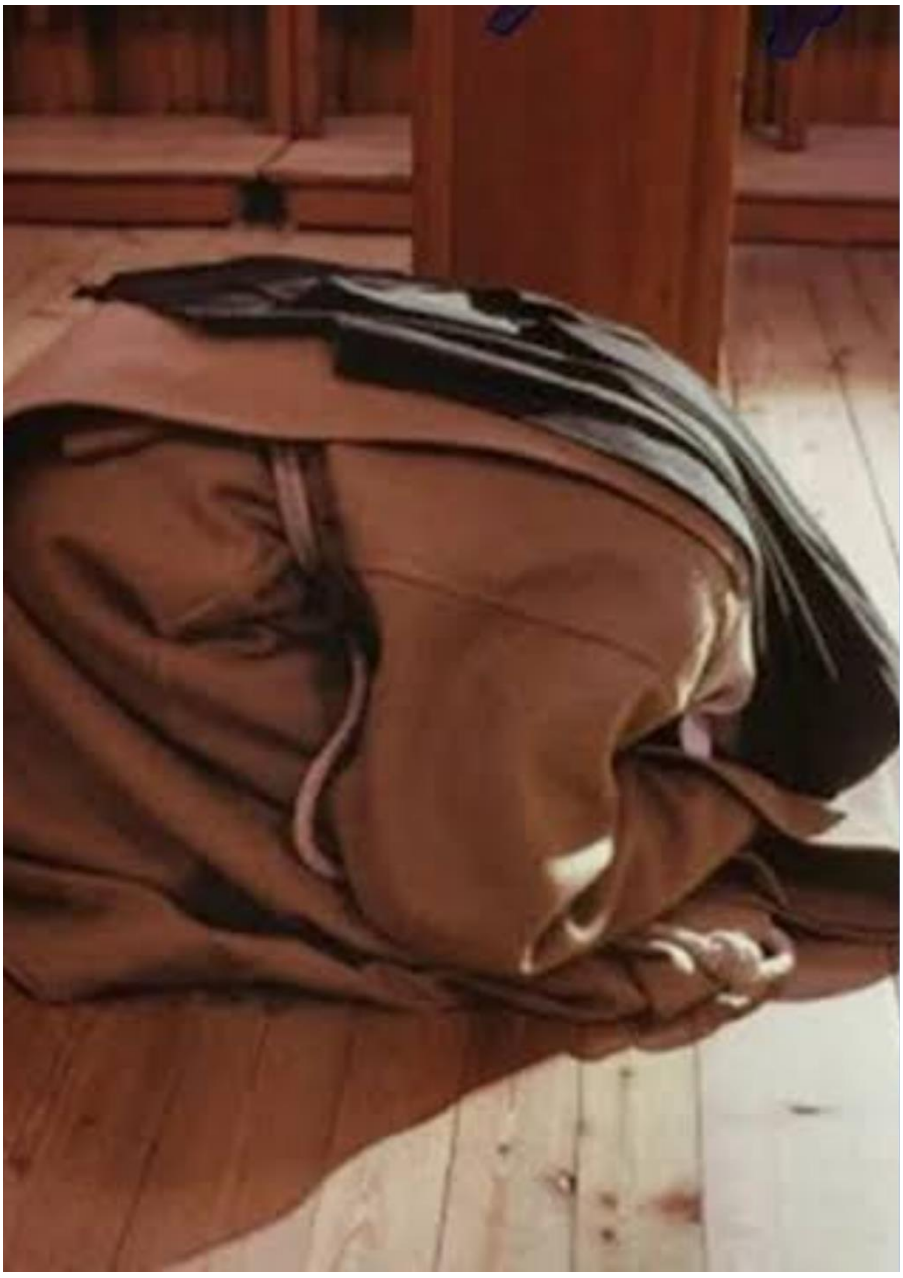

رمضان مصطفى سليمان

كان الليل في المدينة هادئًا، كأن السماء قد أطبقت جفنيها على سرٍّ قديم.

وفي بيتٍ من بيوت بني هاشم، جلست امرأة لا يشبه حزنها أحزان النساء. كانت الرباب بنت امرئ القيس الكلبي، زوجة الحسين بن علي، وأم سكينة وعبد الله، وفي بعض الروايات أم فاطمة الكبرى ورقية ومحمد أيضًا. لم تكن تعرف، وهي تنظر إلى صغارها في ذلك المساء، أن الأيام تخبئ لها طريقًا ينتهي عند أرضٍ بعيدة، وأن اسمها سيغدو بعد ذلك مرتبطًا بامرأة وقفت أمام الفقد فلم تستطع أن تغادره.

كانت الرباب من بيتٍ عربي عريق، وكان أبوها امرؤ القيس من سادة قومه. وتروي الأخبار أن إسلامه كان في زمن عمر بن الخطاب، وأن علي بن أبي طالب أدركه بعد إسلامه، فخطب إليه بناته لنفسه ولابنيه الحسن والحسين. فكان من نصيب الحسين الرباب، وكانت من نصيب الحسن أختها سلمى، وأخذ عليٌّ محياة أختها الأخرى.

وهكذا دخلت الرباب بيتًا لم يكن يشبه سائر البيوت.

دخلت بيت علي وفاطمة، حيث كان الحسين يعيش قريبًا من ذكرى جده رسول الله، وبين يديه رائحة النبوة ودفء الأسرة الأولى. ولم تكن الحياة فيه حياة قصور ولا زينة، بل حياةً يختلط فيها الحب بالمسؤولية، والعبادة بقلق الأيام، والفرح بظل التاريخ الطويل.

وفي ذلك البيت نشأ حبٌّ هادئ بين الحسين والرباب.

لم يكن حبًا كثير الكلام. كان من ذلك الحب الذي يُرى في التفاصيل الصغيرة: في نظرةٍ تطول قليلًا، وفي يدٍ تمتد إلى طفل، وفي انتظار امرأة لزوجها عند عودته، وفي بيتٍ يشعر الرجل أنه يستطيع أن يعود إليه من تعب العالم كله.

وكان الحسين يحب الرباب وابنتها سكينة حبًا ظاهرًا، حتى نُسب إليه قوله :

لَعَمْرُكَ إنني لأُحبُّ دارًا تحلُّ بها سكينةُ والربابُ

أُحبُّهما وأبذلُ جُلَّ مالي وليسَ لِلآئمي فيها عتابُ

كانت الرباب تسمع مثل هذه الكلمات، فتبتسم.

ولعلها لم تكن تعلم أن الشعر، حين يصدر عن قلبٍ سعيد، قد يتحول بعد الفقد إلى شاهدٍ لا يرحم.

X

مرت الأعوام.

كبرت سكينة، وامتلأ البيت بأصوات الأطفال. كانت الرباب ترى في ابنتها شيئًا من أبيها؛ هدوءًا عميقًا خلف العينين، وذكاءً لا يحتاج إلى كثرة الكلام. ثم جاء عبد الله، الطفل الذي لم يمهله القدر طويلًا.

وكان الحسين إذا حمله بين ذراعيه بدا كأن الدنيا، بكل ما فيها من خصومة وخوف، قد ابتعدت عنه قليلًا.

لم تكن الرباب تسأل كثيرًا عن السياسة.

كانت تعرف أن زمنهم مضطرب، وأن الرجال يتنازعون على الحكم، وأن البلاد لا تستقر على عهد. لكنها كانت امرأة بيت، وأمًّا ترى التاريخ من نافذة صغيرة: من وجه زوجها حين يعود، ومن قلقه حين يطيل الصمت، ومن الأسئلة التي لا تجد لها إجابة.

وكان الحسين يعرف ما لا تعرفه.

يعرف أن المدينة لم تعد كما كانت، وأن الطريق إلى الكوفة قد يفتح أبوابًا لا يمكن إغلاقها. وحين بدأت أخبار العراق تتتابع، صار الصمت في البيت أثقل.

وفي إحدى الليالي، جلست الرباب إلى جواره.

قالت: إلى أين تمضي؟

سكت قليلًا.

ثم قال : إلى حيث يجب أن أذهب.

نظرت إليه طويلًا.

وهل يجب أن تذهب وحدك؟

ابتسم ابتسامة حزينة.

ليس في الأمر وحده سفر.

فهمت من نبرته أن وراء الكلام كلامًا آخر.

وضعت يدها على يد طفلها.

وهذا؟

نظر الحسين إلى عبد الله. ثم إلى سكينة.

وقال : هؤلاء أمانة في أعناقنا، ونحن أمانة في أعناق الله.

لم تجبه.

كانت تعرف أن بعض الأسئلة لا تريد جوابًا، بل تريد فقط أن تُقال.

X

جاء يوم الرحيل.

كانت الخيل تتحرك في الطريق، والناس يتدافعون حول القافلة، والوجوه تزدحم بالوداع. لم يكن أحد يعرف على وجه اليقين أين ينتهي الطريق.

أما الرباب، فكانت تنظر إلى المدينة وكأنها تراها للمرة الأولى.

البيوت التي عرفتها، الأزقة التي مشت فيها، الأبواب التي شهدت ضحكات أطفالها، كل شيء بدا لها فجأة هشًّا وقابلًا للغياب.

وحين ابتعدت القافلة، قالت في نفسها:

هل يمكن للإنسان أن يودع مكانًا وهو لا يعرف أنه يودعه إلى الأبد؟

لم تجد جوابًا.

X

ثم جاءت كربلاء.

صحراء مفتوحة تحت شمس قاسية، وماء بعيد، وخيام صغيرة تحاول أن تصنع من القماش وطنًا مؤقتًا.

كانت الرباب هناك مع سكينة ورقية، على اختلاف الروايات في بعض تفاصيل نسب رقية، وكانت تنظر إلى الرجال وهم يهيئون أنفسهم ليوم لا يشبه الأيام.

كانت تعرف أن شيئًا ما يقترب.

شيء لا تستطيع أمٌّ أن تمنعه، ولا زوجة أن ترده، ولا طفلة أن تفهمه.

في الليل، كانت الخيام تهدأ.

تنام الأجساد قليلًا، لكن القلوب لا تنام.

جلست الرباب عند باب خيمتها، ورفعت بصرها إلى السماء.

قالت سكينة : أماه، لماذا لا تنامين؟

قالت : لأن الليل طويل.

قالت الصغيرة : وهل يطول الليل إلى الأبد؟

ابتسمت الرباب.

لا يا ابنتي. لا شيء يطول إلى الأبد.

ثم سكتت.

وفكرت :إلا بعض الأحزان.

X

جاء عاشوراء.

لم تعد الكلمات تكفي لوصف ما حدث في ذلك اليوم. صار الرمل شاهدًا، والسماء شاهدًا، والريح شاهدة.

خرج الرجال واحدًا بعد آخر.

وكانت النساء خلف ستار الخيام يتابعن حركة الرجال، وكل واحدة منهن تحمل في صدرها اسمًا تخشى أن يصبح بعد قليل ذكرى.

وحين اقترب الوداع الأخير، كان الحسين يعرف أن اللحظة التي حاول الجميع تأجيلها قد وصلت.

أوصى أهله بالصبر، ونهاهم عن تمزيق الثياب وخدش الوجوه، ثم مضى.

وقفت الرباب عند باب الخيمة.

لم تصرخ.

كانت تحدق في ظهره وهو يبتعد، حتى صار نقطة بعيدة في فضاء الصحراء.

وكان في داخلها صوت آخر يقول : اذهبي إليه.

ثم صوت أشد : إلى أين؟

خذي يده.

ومن يحمي الأطفال؟

نادِه.

إنه ذاهب إلى قدره.

وهكذا بقيت مكانها.

أحيانًا لا يكون أعظم الألم في أن ترى المصيبة، بل في أن تعرف أنك عاجز عن منعها.

X

حين انتهى النهار، لم يعد الحسين.

عاد الخبر وحده.

والخبر حين يأتي بالموت لا يشبه سائر الأخبار.

لم تقل الرباب شيئًا.

جلست، كأنها تنتظر أن يدخل من باب الخيمة في أي لحظة ويقول لها إن الأمر كله كان وهمًا.

ثم رأت الوجوه.

فهمت.

كان عبد الله بين ذراعيها.

طفلًا صغيرًا لا يعرف لماذا صار الصمت من حوله ثقيلًا. وفي لحظة من لحظات ذلك اليوم، ارتفع الطفل في يدي أبيه، ثم عاد إلى أمه ميتًا.

تذكر الروايات أن حرملة بن كاهل قتله بسهمه.

لكن الرباب لم تكن تعرف اسم السهم.

كانت تعرف فقط اسم ابنها. عبد الله.

ذلك الاسم الذي حملته بين يديها، وسهرت إلى جواره، وراقبت خطواته الأولى، صار الآن أثقل من أن تحمله امرأة واحدة.

ضمته إلى صدرها.

وقالت : يا بني...

ثم انقطع صوتها.

كان بعض البكاء يخرج من القلب فلا يصل إلى اللسان.

X

بعد المقتل، لم تعد كربلاء مكانًا.

صارت جرحًا.

وسارت الرباب مع الأسرى، تحمل في قلبها بيتًا كاملًا هُدم في ساعات. كانت سكينة إلى جوارها، وكانت النساء يتشبثن ببعضهن في الطريق، كأن الجسد الواحد إذا انقسم لا يقدر على احتمال الريح.

دخلوا الكوفة، ثم ساروا إلى الشام.

وفي الطريق كانت الرباب تتأمل وجه ابنتها.

كانت سكينة تحاول أن تكون قوية.

قالت لها ذات ليلة: أماه، هل سنعود إلى المدينة؟

أجابتها: نعم.

وهل سيعود أبي معنا؟

سكتت الرباب.

ثم قالت : أبوكِ معنا يا سكينة.

رفعت الفتاة عينيها.

أين؟

وضعت الرباب يدها على صدرها.

هنا.

فهمت سكينة.

ومنذ تلك اللحظة لم تعد تسأل.

X

وفي مجلس ابن زياد، جاءت اللحظة التي لا تريد الذاكرة أن تنساها.

رأت الرباب رأس الحسين. لم تر فيه رأس رجلٍ غريب، ولا رمزًا من رموز حربٍ انتهت. رأت زوجها. رأت الرجل الذي كان يملأ البيت بصوته. رأت أبا أطفالها.

اقتربت منه، وأخذت الرأس، وضمته إلى حجرها.وقبّلته.

ثم خرج من فمها نداءٌ لا يشبه الشعر بقدر ما يشبه انكسار الروح:

واحسينًا، فلا نسيتُ حسينًا أقصدته أسنّةُ الأعداءِ

غادروه بكربلاء صريعًا جادتِ المزنُ في ذُرى كربلاءِ

لم يكن في المكان شيء يستطيع أن يواسيها.

فبعض المصائب أكبر من المجالس.

X

وحين عادت الرباب إلى المدينة، لم تعد المرأة التي خرجت منها.

عادت ومعها سكينة، وعادت معها ذاكرة كربلاء.

أما البيت، فكان واقفًا كما تركته، لكن كل شيء فيه كان غريبًا.

المكان نفسه. الأبواب نفسها. الجدران نفسها.

غير أن صاحب الصوت لم يعد موجودًا.

دخلت الرباب إلى بيتها، ووقفت طويلًا.

رأت موضع جلوس الحسين. رأت شيئًا من ثيابه.

تخيلت يده على كتف سكينة.

ثم جلست على الأرض.

وقالت في سرها : كيف يستطيع المكان أن يحتفظ بمن رحل، ولا يعيده؟

كانت هذه هي قسوة البيت بعد الموت: أن كل شيء يبقى، إلا الإنسان.

X

تختلف الروايات في موضع إقامتها بعد كربلاء.

فقيل إنها أقامت في كربلاء عند قبر الحسين عامًا، وقيل إن عزاءها كان في المدينة. وأيًا كان الموضع، فإن الحقيقة التي تتفق عليها الروايات هي أن الرباب لم تستطع أن تجعل الحزن أمرًا عابرًا.

كان قبر الحسين، إن أقامت عنده، وطنها الأخير.

وكانت المدينة، إن عادت إليها، مدينةً يسكنها الغياب.

وقيل إنها أقامت عامًا لا تستظل بسقف، كأنها أرادت أن تجعل السماء وحدها سقفًا بينها وبين الرجل الذي فقدته.

كانت الأيام تمر. يوم. ثم شهر. ثم موسم. ثم عام.

والناس يقولون لها: كفاكِ بكاءً.

وكانت تنظر إليهم ولا تجيب.

كيف يطلبون من امرأة أن تنتهي من حزنها كأن الحزن مجلسٌ له موعد انتهاء؟

X

وفي إحدى الليالي، دخلت عليها سكينة.

كانت قد كبرت قليلًا منذ كربلاء.

قالت: أماه، هل كنتِ تحبين أبي إلى هذا الحد؟

نظرت الرباب إليها.

قالت: أكثر مما تعرفين.

وهل ينتهي الحب بالموت؟

ابتسمت الرباب، وكانت في ابتسامتها مرارة السنين.

لو انتهى الحب بالموت ، لكان الموت أرحم.

جلست سكينة قربها.

قالت : إذن أين يذهب من نحب؟

نظرت الرباب إلى السماء.

لا يذهبون كلهم.

وكيف؟

بعضهم يخرج من البيت، ويبقى في القلب. وبعضهم يغيب عن العين، ويصير جزءًا من الروح.

سكتت سكينة. ثم أسندت رأسها إلى كتف أمها.

وللمرة الأولى، شعرت الرباب أن الحسين ترك لها شيئًا يستطيع أن يعيش: أبناءه.

X

لم يكن حزن الرباب على الحسين وحده. كان حزنها على عالمٍ كامل انهار معه. حزنها على عبد الله الذي لم يكبر. على سكينة التي ستكبر وفي قلبها صورة أبيها الأخيرة. على رقية، التي تختلف الروايات في تفاصيل حياتها ومصيرها، والتي ارتبط اسمها في الذاكرة الشعبية بمأساة الشام. حزنها على امرأة عادت من الطريق ولم تجد زوجها، وعلى بيتٍ صار تاريخه أكبر من جدرانه.

ولهذا لم تكن مرثيتها للحسين مجرد رثاء زوجة لزوج.

قالت :

إن الذي كان نورًا يُستضاء به بكربلاء قتيلٌ غيرُ مدفونِ

سبطَ النبي جزاك الله صالحةً عنّا وجُنّبتَ خُسرانَ الموازينِ

قد كنتَ لي جبلًا صعبًا ألوذ به وكنتَ تصحبنا بالرحم والدينِ

من لليتامى ومن للسائلين ومن يُغني ويُؤوي إليه كلَّ مسكينِ

والله لا أبتغي صهرًا بصهركمُ حتى أُغيَّب بين الرمل والطينِ

كان في قولها الأخير شيء من العهد.

لقد مات الرجل، لكنها لم تكن مستعدة لأن تستبدل به رجلًا آخر.

ويُنسب إليها أنها لما خُطبت بعد استشهاد الحسين قالت ما معناه إنها لا تريد أن تتخذ حَمًى بعد رسول الله.

لم تكن العبارة مجرد رفض للزواج.

كانت إعلانًا بأن بعض العلاقات لا تُستبدل، وأن المرأة قد تختار أن تعيش بما بقي من ذكرى رجلٍ واحد، لا لأن الحياة توقفت، بل لأن قلبها اختار وفاءً لا يعرف المساومة.

X

مرت الشهور.

وكان الحزن يغيّر ملامحها ببطء.

لم تعد الرباب ترفع صوتها كثيرًا.

كانت تتحدث مع سكينة عن أبيها، وتروي لها حكايات صغيرة لا يعرفها المؤرخون: كيف كان يبتسم، كيف كان يحمل عبد الله، كيف كان ينظر إلى البيت حين يعود.

كانت تعرف أن الإنسان لا يحفظ الموتى من خلال تواريخهم، بل من خلال التفاصيل.

وهكذا حفظت الحسين. لم تحفظه فقط بوصفه شهيدًا. حفظته زوجًا. وأبًا. ورجلًا كان يحب أن يرى سكينة والرباب في دار واحدة.

ربما لهذا كانت مراثيها موجعة.

لأنها لم تكن ترثي صورة عامة، بل رجلًا عرفته عن قرب.

X

وفي العام التالي، بدا لها أن عليها أن تغادر.

وقفت عند قبر الحسين، إن صحت الرواية التي تذكر إقامتها هناك، ونظرت طويلًا.

لم يكن المكان يطلب منها الرحيل. لكن الحياة كانت تفعل.

قالت : إلى الحول، ثم اسم السلام عليكما.

ثم سكتت.

كأنها أرادت أن تقول شيئًا آخر ولم تستطع.

ربما أرادت أن تقول: سامحني لأنني سأرحل.

وربما قالت في نفسها: لا، أنا لا أرحل عنك. أنا أحمل قبرك معي.

ثم مضت.

X

كانت المدينة تنتظرها.

لكن الرباب كانت تعرف أن العودة ليست عودة.

فالإنسان يستطيع أن يعود إلى المكان، ولا يستطيع أن يعود إلى نفسه التي كانت فيه.

عاشت بعد الحسين زمنًا قصيرًا.

وتروي الأخبار أنها لم تهدأ من البكاء عليه، وأنها عاشت بعده نحو عام، ثم توفيت سنة اثنتين وستين للهجرة، ودُفنت في البقيع.

وهكذا انتهت حياة امرأة لم تكتب الكتب عنها كل ما يمكن أن يُقال، لكنها تركت وراءها صورة لا تمحى.

صورة امرأة خرجت من بيتها زوجةً وأمًّا، وعادت منه أرملةً تحمل أطفالها وذاكرة مذبحة.

امرأة عرفت أن الحب ليس دائمًا أن تبقى مع من تحب، بل أن تحمل غيابه حين يصبح البقاء معه مستحيلًا.

X

وفي آخر الليل، حين يهدأ كل شيء، يمكن تخيل الرباب جالسة وحدها.

لا خيل في الطريق. لا صهيل. لا سيوف. لا صراخ.

فقط ريح خفيفة تمر على المدينة.

تضع يدها على قلبها. تغمض عينيها.

وفي داخلها يعود صوت قديم: يا رب، كيف يحمل القلب كل هذا؟

ثم يأتيها الجواب الذي لا يُسمع إلا في أعماق الذين عرفوا الفقد: لا تحمليه كله.

دعي بعضه للسماء.

فتبكي. لكنها هذه المرة لا تبكي لأن الحسين مات. تبكي لأنه عاش. ولأنها أحبته.

ولأنها عرفت، كما لا يعرف الإنسان إلا بعد الفقد، أن أجمل ما في الحياة ليس أن نملك من نحب إلى الأبد، وإنما أن يتركوا فينا أثرًا لا يستطيع الموت أن يمحوه.

كان الحسين قد مضى. وكان عبد الله قد مضى. وكانت كربلاء بعيدة.

لكن الرباب بقيت تحمل في صدرها بيتًا لم يهدمه الزمن. بيتًا من صوت، وذكرى، وطفل، وابنة، ورجلٍ أحب دارًا تحل بها سكينة والرباب.

ولعل هذا هو السر الأخير للحب: أن يموت صاحبه، وتبقى الدار. ثم تموت الدار، ويبقى الاسم. ثم يهدأ الاسم، ولا يبقى إلا الأثر. والأثر، وحده، يعرف كيف يعبر القرون.